علم النفس والإسلام

- ٣ -

للاستاذ الدكتور محمد مظهر سعيد

عميد الفلسفة وعلم النفس والاجتماع

تحدثنا عن عاطفة الحب . وذكرنا ان الكراهية عاطفة كاملة ثانية تقابل الحب ، لأنها هى الأخرى استعداد يكتسب ينمو فى نفس الانسان ويتدرج بحكم المخالطة والمعاملة من انفعال واحد الى عدة انفعالات تتجمع وتنتظم حول شىء أو شخص أو فكرة . حتى اذا اكتمل نموها أصبحنا نخاف من الشىء المكروه ، لانه مصدر خطر وشر ، ونغضب منه ، ومن يناصره وينتمى اليه وننفر من قبح شكله أو سوء فعاله ، ونتعجب من أحواله وتصرفاته ونتمنى له الاذى ونشر ان أصابه الشر ، ونعمل مجاهدين للقضاء عليه .

ومن عجب حكمة البارى عز وجل ، ان هاتين العاطفتين الكاملتين المتعارضتين . تشتركان فى معظم الانفعالات ، فالخوف والغضب والتعجب عنصر أساسى فى كل منهما ، ولكن الفرق فى الاتجاه ، فنحن نخاف على المحبوب . ولكننا نخاف من المكروه ، ونغضب للمحبوب ولكن المكروه نغضب منه ، وهكذا . ولكن رغم هذا الاشتراك فان عاطفة الحب تنفرد بانفعال الحنو ، ومهما أساء المحبوب فنحن نحنو عليه ونلتمس له العذر ، وعقابنا له غضب ملطف بالحنو . وتنفرد عاطفة الكراهية بالنفور ومهما تقرب منا المكروه ، وحاول ان يصلح ذات البين ، نفرنا منه وشككنا فى نواياه .

وعاطفة الكراهية رغم ما فيها من حقد وشهوة انتقام ، خطوة ضرورية لاستكمال شخصية الانسان ونضجه الوجدانى ، حتى يصل الى مستوى عال من السلوك . فهى تنظيم للانفعالات المقاتلة العدوانية ، واستغلال للنشاط الحيوى فى القضاء على أمور مكروهة مرذولة . وبغيرها لا يتم اصلاح اجتماعى أو أخلاقى أو ثورة على التقاليد السخيفة البالية والنظم العتيقة الضارة . ولابد فى كل مجتمع انسانى من وجود أفراد أو شرذمة من الناس ، فسدت طبائعهم وانحطت أخلاقهم ، وامتلأت نفوسهم بالشر وكان لزاما على الطائفة الصالحة من المواطنين أن تقفهم عند حدهم ، أو تقضى عليهم ، اذا فشلت وسائل اصلاحهم ، فلا يظلون مصدر فساد

وافساد ، ولا يتم هذا بغير نمو عاطفة الكراهية فى نفوس المصلحين ، للصفات المذمومة والسلوك المعوج والمجرمين المفسدين .

ولكن المؤمن نهى عن كراهية أخيه المؤمن ، وأمر ان يصطنع معه كل معروف ، ويقابل السيئة بالحسنة ، ويدفع بالتى هى أحسن ، « **فاذا الذى بينك وبينه عداوة كان ولى حميم** » والله تعالى يقول : **واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فالف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته اخوانا** » لان الكراهية بين المؤمنين تؤدى الى التنازع والتنازع يدعو للفشل « **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا ان الله مع الصابرين** »

والكراهية تدفع المؤمن الى غيبة أخيه المؤمن . وقد نهى الاسلام عن الغيبة ومما يتبعها من السخرية بالناس والغمز واللمز والتنابذ بالالقاب . والله يقول : **ولا يغتب بعضكم بعضا** . ويقول : **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ، ولا تلمزوا انفسكم ، ولا تنابزوا بالالقاب .**

والمفرط فى كراهيته مبغوض من الله والناس ، حتى وان كان على حق وفى الحديث الشريف : **أبغض الرجال الى الله تعالى الالد الخصام .**

عاطفة الواجب والكرامة :

وهناك مستوى آخر للعواطف الانسانية أسمى منزلة من مستوى عاطفتى الحب والكراهية ، ولذلك لا يصل اليه الا نفر قليل من الناس ، الذين يستطيعون أن يخضعوا حبهم وكراهيتهم للواجب والكرامة . فهم لا يحبون الاشخاص والاشياء والمبادىء ، كما يفعل معظم الناس . لانهم يجدون فى حبها الشىء الكثير من السرور والمتعة الشخصية وصفاء النفس وراحة البال . ولا يكرهون لانهم يجدون فى كراهيتهم اشباعا لشهوة الانتقام والسيطرة والظهور على الخصوم والتنكيل بهم . وانما يضحون بمتعتهم ولذتهم ومصالحهم المادية والادبية ، فى سبيل الواجب والكرامة . ويخضعون حبهم وكراهيتهم ، فيحبون ويتعاونون مع الاشخاص الذين يقضى الواجب بالتعاون معهم لتحقيق المصلحة العامة ، والمثل العالية ، ولو كانوا قبلا من أعدائهم فيتناسون الماضى . ويصفون النفوس من الضغائن ، ويتجاوزون عن كل اعتبار سابق ، لان الظرف القائم يقتضى التعاون فى الخير . وقد يضحون بأموالهم وأولادهم فى سبيل الوطن أو الدين ، وهم مصدر الحب الانسانى وزينة الحياة الدنيا ، ويستمرئون طعم التضحية .

فعاطفة الواجب أو الكرامة ، التى تمنع الانسان من فعل ما يمس احترامه لذاته ، أو ينافى الكرامة ، أو يعطل الواجب . سرا أو علانية ، هى تاج العواطف البشرية ، وآخر مرحلة فى كمال السلوك الانسانى .

ذلك ان أساسها الخجل من كل فعل أو موقف مشين أو محقر ، كما ان الحنو أساس الحب والنفور أساس الكراهية • فالذى يحترم ذاته يخجل من ارتكاب النقائص ، والتقصير فى أداء الواجب ، وهو كبرى النقائص ، ويحب الامور المحترمة ، ويكره المحتقرة ، لانه يرى فيها صورا مجسمة لشعوره النفسانى بالواجب ، ولا يمكن ان يعرف الاحترام للناس الا من يعرف كيف يحترم نفسه ، والعظيم يعرف العظماء ويقدرهم حق قدرهم ، والناس كذلك لا تحترم صادقا الا من يحترم نفسه • ومن يهن يسهل الهوان عليه •

أما خضوع الرؤوس للرئيس الذى يتطرف فينزل الى حد الخنوع ، وتزلف التابع للمتبوع فذل واستكانه تحت ستار الاحترام المموه الكاذب

وليس من شك فى أن العواطف من أهم الاسس التى يبنى عليها سلوك الافراد والجماعات وخلقهم ومثلهم ، لانها نظام تام كامل للحياة الوجدانية والنزوعية ، وبدونها تصبح الحياة فوضى ، ليس فيها نظام أو استقرار أو استمرار ، وتصبح جميع علاقاتنا الاجتماعية أسيرة الدوافع الغريزية ، ورهنا للظروف الطارئة • وتظل انفعالاتنا جامحة غير مستقرة ، لا نستطيع ان نتحكم فيها أو نقدر نتائجها أو توجيهها فى عمل صالح منتج ، ولا يكون هناك مجال لاستخدام الارادة فى الحد من رغباتنا وشهواتنا ، وتكون أحكامنا على الاشخاص والمواقف سطحية متقلبة ، فلا تصل الى المبادىء الخلقية المتينة ، ما دامت تتفجر من نبع العواطف •

ولكن على الرغم من أن مرحلة العواطف قد لا يستطيع الكثير من الناس أن يصل اليها ، ومستواها فوق سائر مستويات التصرف والسلوك فانها تحتاج بدورها الى تنظيم ، حتى تصبح مجموعة واحدة عاطفية تترابط فيها كل العواطف وتتعاون وتنسجم ، فتسير فى طريق واحد نحو غاية سامية يسعى الانسان لتحقيقها ، أو مثل عال يتطلبه ، لان بقاء العواطف منعزلة ، تعمل كل منها فى طريقها غير متعاونة مع الاخرى ، يجعل الانسان رهن الظروف ، فتستبد به عاطفة الحب تارة وعاطفة الكراهية تارة أخرى • لاختلاف مراكز العواطف وتعددها ، كأن يتردد الانسان فى حالة الدفاع عن الوطن بين حبه لحياته وذاته وأولاده وأمواله والتضحية بكل هذا فى سبيل حبه لوطنه ، أما اذا خضعت العواطف كلها لعاطفة الواجب والكرامة ، قويت وسادت وتحكمت فى سلوكه ، وتناولت جميع نواحي خلقه ، وخلقت فيه الدوافع والارادة القوية ، فاذا ما اتصلت بمبدأ عام وغاية نبيلة ، وصلت بالانسان الى ما ليس بعده غاية من كمال الخلق •

محمد مظهر سعيد